المواصلات في العهد المملوكي في دمشق

م. رشا عيسى فارس

مركز احياء التراث العلمي العربي

جامعة بغداد

2014 - 2015

المواصلات في العهد المملوكي في دمشق

م.رشا عيسى فارس
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

الـمـقـدمـة

كثيرة هي المؤلفات التي بحثت في تاريخ وجغرافية وإقتصاد الحضارة الإسلامية على إختلاف أزمانها وتباين الأقوام التي حكمتها .

وإننا لنشعر بالإمتنان لأولئك المؤلفين الذين دونوا حضارتنا وأوصلوها إلينا سالمة ، هذه الحضارة التي جعلتنا نفخربأسلافنا ومنجزاتهم ، وان نتبوء مكانة رفيعة بين الأمم ، ولكن هناك بعض الثغرات في تاريخنا العريق تفتقر إلى المزيد من الإيضاح والتفسير لم يزودنا بها الكُتّاب .

هذا التغاضي جعل البحث في بعض المواضيع الجانبية ، رغم أهميتها ، أمراً شاقاً فعلى الدارس مراجعة عشرات الكتب كي يجمع معلومات متناثرة هنا وهناك بين طيات السطور كي يصل إلى ما يروم إليه .

من بين هذه المباحث موضوع يتناول طرق المواصلات في مدينة دمشق في العصر المملوكي ، التي ترامت أطرافها حتى وصلت إلى أقاصي الشرق وعلى مشارف الغرب ، إذ لم تردنا نصوصاً وافية عن الطرق التجارية التي كان يرتادها عامة الناس من التجار ، والمسافرين ، ورجال البريد ، ولا تلك المسالك الخفية التي كانت تعمد الجيوش إلى السير فيها دون غيرها لتمويه الأعداء .

لقد بحثنا في المؤلفات القديمة ووجدنا ، ان من النادر ماكان يصادفنا نصا شافيا يبحث بشكل مباشر ومفصل عن طرق المواصلات في عصر دولة المماليك في مدينة دمشق ، رغم ماكانت تتمتع به من شهرة في مجال النشاط التجاري ، والموقع الجغرافي المميز عبر تاريخها العريق في القدم . ومع ذلك تمكنا من إقتناص فقرات تناولت مواضيع مختلفة قادتنا للوصول إلى جمع معلومات قيمة عن هذا المبحث .

الـتـسمـيـة والـصـفـة

ولأصالة هذه المدينة ورفعتها بين مدن العالم القديم ، كان من البديهي أن يحتل معنى إسمها حيزاً كبيراً في معاجم اللغة والجغرافية بشكل خاص ، فقد اشير إلى ان :

دِمَشْقُ الشَّام : بكسر أوله ، وفتح ثانيه ، والكسر لغة فيه ، وشين مُعجمة ، وآخره قاف ، سُميت

كذلك لأنهم " دمشقوا ، أي أسرعوا في بنائها " . و رأي ثان لإبن الكلبي يقول انها سميت بـ (دماشق) نسبة إلى دماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح (ع) . وقال أيضاً نسبة إلى ولد يقضان بن عامر سالف وهم السلف [1] .

و قيل ان معنى الشام هو الطيب ، وانها سُميت شأماً بسبب كونها تقع على شمال الكعبة ، كما في تسمية اليمن لوقوع هذا البلد على يمين الكعبة [2] ، كما يقال للمرأة السريعة اليد في العمل دمشق[3] .

وعن أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري : " دمشق فعل من قول العرب : ناقة دمشقة اللَّحم ، إذا كانت خفيفة [4] .

وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس في كتاب (الإشتقاق) ان كلمة (دمشق) تعني السرعة و (ناقة دمشق) أي (سريعة) ، وقال :

وَصَاحِبي ذاتِ هِبـابٍ دَمْشَقُ كأنّها بَعْدَ الكَلال زَورَقُ

وَيقال دمشق الضرب ودمشق أي ضرب ضرباً خفيفاً سريعاً [5] .

وعن إبن عساكر، عن ابا بكر محمد بن عبدالباقي بن محمد الفرضي انه سمع عن رجلاً روميا خلال أسره في بلادهم ان : دمشق كلمة رومية ، وأصل الإسم (دوومسكس) ، ومعناها (مسك مُضاعف) كطيبها ، فـ (دوو) تستخدم للتضعيف ، ومعنى (مسكس) هو المسك ، ثم عُربت وأصبحت (دمشق) [6] .

ووصفها الرحالة إبن جبير (540 - 614 هـ / 1145 - 1217 م) بعد زيارتها ، انها جنة أنزلها الله تعالى على الأرض لعباده ، تزينها رياض خضرممتدة ، ذات زهور يعبق جو دمشق بعطرها ، وبساتين ذات أشجار مثمرة ، ومياه عذبة تسقي زرعها ، وأضاف :" إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها ، وإن كانت في السماء فهي نسامتها أو تحاذيها " [7] .

وقد وصفت بالجنة ايضاً " لحسن عمارة ، ونظارة بقعة ، وكثرة فاكهة ، ونزاهة رقعة ، وكثرة مياه" [8] . وعنها قال الأصمعي :" جنان الدنيا ثلاث غوطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الابلة " [9].

إشتُهرت الغوطة التي تحيط بدمشق من جهتي الشمال والشرق بسحرها ، تُزينها خمسة آلاف وثلثمائة وخمسة وأربعين بستاناً ، وضياع عامرة ذات جوامع مثل : المزة ، وداريا ، وحرستا ، ودُمر ، وبلاس ، وبيت لاها ، وعقربا . ويحيط بها وادي البنفسج من الغرب يعرف الآن بوادي الشقراء يصل طوله إلى إثنا عشرميلاً ، وعرضه ثلاثة أميال تجري فيه خمسة أنهار .

تجري في مدينة دمشق وحدها سبعة أنهار ، مصدرها عين تنبع من تحت بيعة تُسمى بالفيجة ، وتظهر بعد خروجها من الشعب بمكان يُسمى النيرب ، وهو جبل عال منه تتفرع الأنهر السبعة [10].

و قيل عنها ان " دمشق أصل مدينة بالشأم في أرض مستوية ، قد دُحيت بين جبال تحتفُ بها ، إلى مياه كثيرة وأشجار وزروع قد أحاطت بها متصلة ، وتُعرف تلك البقعة بالغوطة عرضها مرحلة في مرحلتين . وليس بالشأم مكان أنزه منها ، ويخرج مائها من تحت بيعة تُعرف بالفيجة مع ما يأتي إليه من عين بَرَدَّى من جبل سينر ... " [11].

ولعمق توغل حضارات دمشق في القدم ، فقد أدرك حكام وقادة الإسلام رفعة مكانتها ولذلك إصطفوها ، دون غيرها ، أول عاصمة للخلافة الإسلامية خارج أرض الجزيرة ، حيث نشأت فيها بذور الحضارة العربية الإسلامية ، ومنها إمتدت إلى بقية بقاع العالم التي إنضوت تحت ظل الإسلام فيما بعد [12] . كما نُسِبَ إليها عدد من العلماء وسُموا بالدمشقي ، كالفقيه الشافعي يوسف بن رمضان بن بندار أبو المحاسن الدمشقي ، وكُتِبَ عن مآثرها الكثير كـ (تاريخ إبن عساكر) الذي يقع في ثمانين مجلداً [13] .

مـآثـر مـديـنــة دمشـق

ولمكانتها ذُكر ان مدينة دمشق شغلت حيزاً في القرآن الكريم ، حيث اشير إليها في بعض السور الكريمة ، كما أورد ذلك بعض من مفسري الكتاب العظيم ، وإن لم تكن هذه الإشارة بشكل مباشر .

قال تعالى في كتابه الكريم :

" وَ جَعَلْنَا إبْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ ءآيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إلَى رَبْوَةٍ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعَينٍ " المؤمنون :50

فَسَرَ أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي (ت.671هـ) هذه الآية الكريمة قائلاً : ان المقصود بالربوة هو المكان المرتفع . والمراد بالربوة هنا فلسطين ، أو الرملة . وجاء عن الرسول محمد (ص) انها مدينة دمشق ، وقال آخرون بل هي بيت المقدس .

وذات قرار، أي مستوية يستقر عليها ، وذات ثمار لذلك يستقر الناس على أرضها . والمعين هو الماء الجاري ، الظاهر للعين . [14]

وعن إبن كثير الدمشقي (ت.774هـ) ، أن عيسى بن مريم وأمه أويا إلى غوطة دمشق ، وأنها دمشق ، أو انها الرملة بفلسطين ، و (ذَاتُ قَرَارٍوَ مَعِينٍ) هي أنهارُ دمشق [15] ، وقيل هي النيرب [16] ، وهي قرية بدمشق [17] .

وجاء في الآية الكريمة " لإِيلَفِ قُرَيْشٍ إِءلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِتَّاءِ وَ الصَيّفِ " قريش :1-2

ان أهل قريش كانوا يجتمعون في بلدهم آمنين ، وانهم ألفوا رحلة إلى اليمن شتاءاً ، وإلى بلاد الشام صيفاً ، لغرض التجارة ، ثم انهم يرجعون إلى ديارهم آمنين نظراً لما كانوا يتمتعون به من مكانة بين القبائل [18] .

و ورد كذلك ، ان أصحاب الإيلاف هم أربعة من أبناء عبد مناف ، هاشم كان يُولف إلى بلاد الشام ، بعد ان أخذ عهداً ان تسير قوافله عبر بلادهم بأمان ، وأخوه عبد شمس كا ن يألف إلى الحبشة ، و عبد المطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى بلاد الفرس . ومعنى يُلف يُجير، فسُمي الأخوة الأربعة بالمُجَيرين ، وكان تجار قريش يقصدون اليمن في الشتاء لأنها بلاد " حامية " ، ويقصدون بلاد الشام صيفاً لبرودة جوها شتاءاً [19] .

و كذلك جاء في قوله تعالى : " وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الذَّينَ كَأنوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ... : سورة الأعراف : 137

و ورد عند الطبرسي ان المقصود فيها : إما بنو إسرائيل الذين وصفوا بانهم مستضعفين بسبب إضطهادهم من قبل القبط ، فأورثهم ألله تعالى الملك ومكنهم من القضاء على فرعون ، أوانها جهات الأرض بشرقها وغربها . وقيل أيضاً هي أرض الشأم ، أو انها أرض الشأم شرقها وغربها ، أو أرض مصر [20] .

لم تقتصرالأخبارعن دمشق على الإشارة إليها في القرآن الكريم فحسب ، بل تضمنت نصوصاً كثيرة أشادت بمفاخرها ، حيث وردت في الأحاديث والأخبار التي لها صلة بالصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من الرجال الأخيار .

إجتمعت كلمتهم على مكانة دمشق وعراقتها تاريخاً وحضارةً ، وعلى فضائلها ، على نحو عام ، كجبالها التي وصفت بـ (المقدسة) ، وهي أرض الملاحم ، و أرض البركة ، وانها الفسطاط والمحشر ، وهي مداين الجنة ، يُميزُ أهلها عن غيرهم بثيابهم الخضر ، غوطتها الأكثر إبدالاً ، وزهاداً ، ومساجد ، ومالاً ، ورجالاً . وأهلها إشتهروا بالورع والإيمان [21] .

وفي مقولة عنها :

ان من له نية خبيثة تجاه هذه البلاد يوقعه الله تعالى بسوء عمله . فذُكر ان عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب (رضي الله عليهم اجمعين) حين دخل دمشق هدم سورها فوقع حجر كُتب عليه باليونانية ، فقرأه لهم أحد الرهبان . وجاء فيه : " ويك أم الجبابرة من رماك بسوء قصمه الله . ويك من الخمس الأعين . نقضُ سورك على يديه بعد ألف سنة " .

وإتضح بعد ذلك ان " الخمس الأعين " هو عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب (رضي الله عليهم اجمعين) [22] ، وان هدم سور دمشق قد وقع على يديه.

تُعد أرض الشام أرضاً طيبة باركها الله تعالى ، فكانت محطاً لأناسٍ لهم مكانة ، في نفوس الكثيرين وخاصة المسلمين منهم ، فقدموا من ديارهم إليها وشاء ألله تعالى أن يتوفوا ويُدفنوا في أرضها ، فأصبحت بفضلهم أرضاً طيبة ، ضم ترابها عدداً من الأبرار ، مثل : مشهد و زاوية الخضر(ع) ، مشهد الإمام الحسين (رض) ، وقبر محمد بن عبدالله بن الحسين بن أحمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق ، وغيرهم ، كذلك المنارة التي أقام بها الإمام الغزالي [23] .

يقول إبن حوقل (ت. 367 هـ / 977 م) : على باب جيرون نُصبَ رأس الحسين بن علي(عليهما السلام) ، وهو الموضع نفسه الذي نُصبَ فيه رأس يحيى بن زكريا [24] .

وفي جبانة باب الصغيرقبر : بلال الحبشي (رض) ، والسيدة سكينة بنت أبي بكر (رضي الله عنهما) ، و السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) ، وأبو عبيدة بن الجراح وقبره خارج الجامع المنسوب إليه [25] .

ودفن في جبانة باب الشرقي : أبَّي بن كعب ، جبل بن معاذ ، ضرار بن الأزور . ودُفن خارج باب توما شرحبيل كاتب وحي رسول الله (ص) ، وخولة بنت الأزور . وفي مقابر الفراديس الصحابي أبو الدحدح ، وعبد الرحمن بن ابي بكر (رضي الله عنهما) [26].

وقال أبو بكر الموصلي في كتابه (فتوح الرحمن) ان ضريح السيدة زينب الكبرى بنت علي (عليهما السلام) بغوطة دمشق ، دفنت فيها ، بعد نكبة اخيها الحسين بن علي (ع) ، في قرية راوية التي تقع في ضواحي دمشق ، ثم سُميت البلدة (الست) نسبة إليها [27] . و مشهد زين العابدين (ع) بجامع دمشق ، الذي جدده السلطان الظاهر بيبرس [28] .

خطط دمشق

هناك آراء متباينة حول بنائها ، فقد ذُكر ان أول من شرع في بنائها (بيوراسف) ، وانها بُنيت على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من زمن عمره سبعة آلاف سنة . ورأي آخر يشير إلى ان بانيها هو جَيْرون بن سعد بن عاد بن أرب إبن سام بن نوح (ع) ، كما نُسب إلى هود (ع) الذي نزلها وأسس الحائط في قِبل الجامع ، او انه العازر، وهوغلام حبشي اسمه دمشق وهبه نمرود بن كنعان للنبي إبراهيم (ع) بعد خروجه من النار [29] .

وعن كعب الأحبار قوله ان أول حائط شيد على الأرض بعد الطوفان هو حائط دمشق وحران ، وان دار شداد بن عاد يقع في سوق التين [30] .

لم تشتهر دمشق بسحر طبيعتها وغنى أرضها فحسب ، بل أولى حكامها عناية فائقة بتصميم عماراتها التي وزعت على شوارعها بشكل منتظم ، تزينها زخارف غاية في الدقة و الروعة . فكانت للمدينة أبواب هي :

ـ الباب القبلي : ويُعرف أيضاً بالباب الصغير نظراً لصغر حجمه ، وذُكر في كتاب قديم ان إسمه (باب الجابية الصغير)

ـ باب كيسان : وهو يلي الباب الصغير من جهة القبلة . سُمي كذلك نسبة إلى كيسان ، مولى بشربن عبادة بن حسان بن حبار بن قرط الكلبي

ـ الباب الشرقي : يقع شرقي البلد ولذلك سُمي . ويتكون من باب وسطي كبير ، على جانبيه بابان صغيران ، سُدَّ أحدهما وكذلك الباب الكبير ، وتُرك الباب الصغير الشامي [31] .

ذُكر ان القائد خالد بن الوليد في عام (14 هـ / 635 م) ، دخل من خلالها عنوة عند فتح بلاد الشام لكن القائد أبو عبيدة بن الجراح أجاز الصلح [32].

وهناك ايضاً ابواب أخرى تفتح أبوابها للقادمين إلى مدينة دمشق هي :

ـ باب تـومـا : شامي ، سُمي كذلك نسبة إلى توما أحد عظماء الروم ، تقع على بابه كنيسة ، حُولت فيما بعدإلى مسجد

ـ باب الجينيق : من الشام ، سُمي بذلك نسبة إلى محلة الجينيق ، وهي محلة كبيرة ، بها كنيسة حُولت فيما بعد إلى مسجد

ـ باب السلامة : شامي أيضاً ، سُمي بذلك تفاؤلاً نظراً لصعوبة قتال الجيوش عنده كونه محاطاً بالأشجار والأنهار ، ويُعرف ايضاً بالباب الشريف

ـ باب الفراديس : من شامه أيضاً ، والفراديس محلة تقع خارج هذا الباب

ـ باب الـفـرج : من شامه أيضاً ، أحدثه الملك العادل نورالدين ، وسماه بهذا الإسم تفاؤلاً بعد وقوع فَرجٍ عند فتحه ، إلى جانبه باب آخر هو باب العمارة فُتح عند تشييد القلعة ثم سُدّ لكن أثره باق في السوق

ـ باب الحديد : من شامه أيضاً ، خاص بالقلعة التي شيدها الأتراك غربي البلد

ـ باب الجنان : سميت كذلك لكونها مُحاطة بالجنان أي البساتين

ـ باب الجابية : نسبة إلى قرية الجابية ، في وسطها باب كبير وعلى جانبيها بابان صغيران ، كما في الباب الشرقي . تقود هذه الأبواب إلى ثلاثة أسواق تمتد من باب الجابية إلى الباب

الشرقي ، الأوسط منها مخصص للناس [33] ، وهي الباب نفسها التي دخل منها القائد أبو عبيدة الجراح إلى مدينة دمشق صلحاً سنة (14هـ / 635 م) خلال الفتح الإسلامي ، بعد حصارها قرابة عام [34] .

وقد جدد السلطان الظاهر بيبرس شرفات قلعة دمشق ، ورؤوس أبراجها التي هدمها التتر خلال غزوهم للمدينة ، وبنى بها حماماً ، وشيد القصر الأبلق في ميدانها ، حفت به عمائر ، ورمم الحائط الشمالي . كما إنتشرت في نيابات بلاد الشام المركزية ، ونقصد مدنها الكبرى كدمشق وحلب وحماه وصفد والكرك ، عدد من الموانىء والقلاع التي وصفها القلقشندي بـ (النيابات الصغار) ، وسميت مدينة دمشق بـ (نيابة الشام) أو (مملكة الشام) نظراً لسعتها [35].

قدم إبن جبير وصفاً مختصراً لجانب من أسواق مدينة دمشق فقال انها مُنظمة ، تمتاز قيسرياتها بإرتفاع عمارتها كما في الفنادق ، أبوابها الحديدية كأنها أبواب قصور ، لكل منها خاصية تتصف بها ، وتُقفل بأقفال من حديد . سوقها الكبيريمتد من باب الجابية حتى الباب الشرقي ، فيه بين إتخذ للصلاة ، في قبلته حجر ، وقيل ان إبراهيم (ع) كان يكسر الآلهة التي كان يبيعها ابوه [36].

إختصت بضائع بلاد الشام بصفة خاصة وهي ـ ان تجارها كانوا موزعين على هيئة مجاميع ، كل مجموعة لها إهتمام أو إختصاص بنوع من البضاعة ، ولهذه البضاعة سوق هو الآخريختص باعتها بتسويق نوع معين . يبقى السوق مفتوحاً إلى ما بعد الظهر ، وتمتد دكاكينه على جانبي الشارع ،

كانت هذه الأسواق تُسمى بأسماء البضائع التي تحتويها ، كدار البطيخ ، ودار الفاكهة والخضار ، و كذلك سوق الصاغة ، وآخر للسراجين ، والزجاجين [37].

<u>جانب من منجزات المماليك الإقتصادية في بلاد الشام</u>

سار حكام المماليك في بلاد الشام على نهج أسلافهم ، ممن حكموا هذه البلاد ، فأولوا إهتماماً كبيراً لإقتصاد دولتهم حيث كان جُل التجار يسيرون بقوافلهم آمنين عبر بلاد الشام ، منطلقين من مراكز وخطوط تجارية عدة ، متجهين إلى مثيلاتها المنتشرة في الشرق والغرب .

وقد سبقهم الامويون في هذا المجال ، من خلال إهتمامهم بطرق البر ، فقد طوروا خطوط التجارة التي تشق عباب البحار، إضافة إلى عنايتهم بمتانة السفن ، مستخدمين مساميراً من الحديد تُثبت على سطوحها ، ومن ثم طليها بالقطران لمنع تسرب المياه . وتذكر رواية تاريخية ان سفن الحجاج كانت تصل في مسيرها إلى جزيرة سيلان ، وانها كانت تتعرض أحياناً إلى قرصنة من قبل الهنود [38].

إتسمت سياسة الحكام المماليك الإقتصادية بإهتمامهم بالتجارة ، بشكل خاص، مستغلين مواقع المدن ومؤانئها في بلاد الشام ومصر، حيث أوجدوا طرقاً بحرية تربط بين المدن التي كانت تحت سيطرتهم و الواقعة على البحر المتوسط والبحر الأحمر، وتلك التي تقع على سواحل اوربا ،

إضافة إلى إهتمامهم بالطرق البرية ، كما ساهمت طرق النقل البحري في إيصال البضائع الفاخرة التي كانت تُنتج في بلاد المسلمين مثل الأنسجة الحريرية والكتانية والزجاج والخزف [39] .

ولابد لنا من التنويه ان نشاط الطرق البحرية لم يكن مقتصراً على موانىء المماليك وثغور إيطاليا فحسب ، بل ساعد كذلك على إزدهار مراكز تجارية أخرى تُنقل بضائعها عبرشبكة طرق برية إمتدت من أقصى آسيا في الهند والصين حيث ،العطور، والتوابل ، والحرير، والأصباغ ، والبخور، والأخشاب إلى موانىء البندقية وبيزا وجنوة .

ومن ثم طرق برية أخرى تبدأ من هذه الموانىء وتنتشر على أرض واسعة من اوربا . كما سعت اوربا ، من جانبها ، إلى تطوير علاقاتها مع المماليك من خلال حرصها على عقد اتفاقات تجارية معهم لضمان حصول تجارها على مكاسب وامتيازات خاصة . فتردد تجار اوربا على مدن الشرق التي انعشتها سياسة المماليك الإقتصادية عائدين بكنوز الشرق التي قل نظيرها في بلادهم ، حتى إمتدت طرق النقل التجارية في عهد الناصرمحمد بن قلاوون ومملكة أرغون لتصل إلى قشتالة وصقلية [40] .

وخط آخركان يوجد في مكة والمدينة والطائف في أرض الجزيرة ، ونجران وصنعاء وعدن في اليمن ، ومدناً عديدة كانت قائمة في ارض الرفدين وبلاد الشام ومصر .

يُذكرُان الطرق التي ربطت هذه المدن سابقاً إستخدمت للفتوحات ، لكن استقرار المنطقة وإستتباب الأمن حول نشاطاتها إلى إتجاه آخر ، فشكلت شبكة أو طريقاً تجارياً برياً آمناً يصل بعضها البعض ، تقوم على حمايته قبائل عربية كانت تتصدى لكل من كان يحاول إيقاع الأذى بسالكيه ، بل إتسعت إمتداداتها لتشمل مراكز أخرى جديدة كالبصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، والقيروان ، وصارت السلع تصل إلى بلاد الغرب عبرموانىء شمال افريقيا من خلال المدن الجديدة التي تأسست مثل القيروان ، وفاس ومراكش ، أومدن عادت إليها الحياة مرة أخرى بعد الفتح ، كقرطبة ، واشبيلية ، وطليطلة ، وبالرمو في صقلية [41] .

نشأت في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي مراكز تجارية بحرية منها ، ميناء دمياط في مصر، الذي كان يستقبل سفناً تجارية قادمة من اوربا ، وافتتحت فيها عدد من القنصليات من بينها قنصلية البندقية .

والفسطاط التي تقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر، يرتبط بها طريق بري تسلكه قوافل من الجمال تقطع الصحراء بين عيذاب وقوصا . وتصل الميناء بضائع الكارم ، والقرفة ، والفلفل بشكل خاص ، إضافة إلى ان هذا الميناء كان منطلقاً للحجاج القاصدين بيت الله حيث يرتبط بطريق بحري ثان يوصل إلى ميناء جدة على الساحل الشرقي المقابل على البحر الأحمر .

وفي بلاد الشام إشتهرت دمشق بحضارتها العريقة وبمكانتها الرفيعة التي اكتسبتها خلال العصور الإسلامية ، ثم بكونها مركزاً تجارياً بارزاًفي العصر المملوكي [42].فالصناعة الدمشقية ، بشكل خاص ، معروفة ، بتنوعها ، ودقة صنعتها ، ورقة خامتها ، كما عُرف صُنّاعها بمهارتهم ، و رِقة أناملهم ،

وحُسنَ إختيارهم للألوان ، فراجت بضاعتهم ، وكثُرَ الطلب على منتجاتهم ، وإتسعت رقعة أسواقهم [43] .

وإستقبلت مدينتي بيروت وطرابلس الواقعتين على سواحل بلاد الشام تجاراً من البندقية والجنوب ، للحصول على الكارم ، والسكر، والأصباغ ، والحرير، والقطن . كما كانت هناك طرقاً داخلية للتجارة تُنقل فيها البضائع من المراكز التجارية الكبيرة الى مدن اخرى صغيرة [44] .

من المعروف ان النشاط التجاري يساهم مساهمة فعالة في زيادة واردت الدولة ، اضافة الى ايجاد فرص عمل لأعداد كبيرة من الناس غير التجار والصرافين ، كاؤلئك الذين يعملون في تفريغ شحنات البضائع من السفن القادمة عبر الطرق البحرية ، ومن ثم تحميلها على الدواب والعربات ، ونقلها ثانية عبر طرق برية ، وكذلك تقديم خدمات للتجار في الخانات التي انتشرت في المدن الإسلامية [45] .

وبفضل جهود الحكام المماليك التي بذولها لتطوير حياة مواطنيهم وعلى إختلاف مهنهم ، إحتلت التجارة مكان الصدارة من بين إهتماماتهم الأخرى ، نظراً لما كانت تدره من ثروات على دولتهم . يُضاف إلى ذلك ان العصر المملوكي شهد نقلة واسعة ، ونشاطات شملت جوانب عديدة حتى ان حروبهم الخارجية عكست أموراً إيجابية كثيرة ، فقوة الدولة وأمن حدودها ساعداعلى سلامة المسير عبر طرقها ومسالكها ـ هذه الطرق التي كان يرتادها التاجر، وطالب العلم ، وعامل البريد ، والحاج وغيرهم [46] .

نجح سلاطين المماليك في إبرام اتفاقيات تجارية عديدة مع الغرب ، منها حضورسفارة من البندقية إلى القاهرة رأسها (جويدا كانالي) في عام (701هـ / 302 م) للحصول على ميزات خاصة لمواطنيه التجار، و أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693 هـ / 1693 م)مرسوماً سلطانياً يقضي بمنح الأمان الشامل لتجار البندقية في أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم التي كانوا قد حصلوا عليها في عهد والده السلطان المنصور [47].

و كانت هذه المعاهدات تُجدد بإستمرار ، كإتفاقية السلطان الكامل شعبان بن الناصرعام (746 هـ / 1345 م) ، تلتها في عام (757 هـ / 1305 م) معاهدة عقدها السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد مع القنصل البندقي نيقولا زينو ، مُنح فيها التجار حرية واسعة في التنقل ، ونقل البضائع ، وحقوقاً مادية وشرعية . وأخرى معاهدة السلطان الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر في عام (767 هـ / 1366 م) حتى وصل عدد التجار في الإسكندرية إلى ثلاثة آلاف ، و خُصصت لهم مناطق ، فيها حمامات ومخابز ، ومرافق خدمية ، وعدد من الخانات يعيشون في ادوارها العالية ، ويعرضون سلعهم في باحاتها الوسطية [48] .

من جانب آخر ، حاول سلاطين المماليك ونوابهم في بلاد الشام إستمالة العشائر التي كانت تجوب براري دمشق فأسبغوا على شيوخها الألقاب والأموال ، وبالمقابل طالبوهم باداء واجبات نحوهم مثل الولاء المطلق للحكام ، وتأمين الطرق والدروب المارة عبر الصحارى ، ودعم جيوشهم بالرجال ان

دعت الحاجة ، لكن شيوخ العشائر رأوا في ذلك تقييداً لحرياتهم فإلتزموا بما كانوا يرونه مناسباً لهم وأعرضوا عن جوانب أخرى [49] .

ولعله من الطريف ان نذكر ان المماليك انفسهم وفدوا على بلاد الإسلام خاصة مصر عن طريق التجارة . فقد وجد تجار الرقيق ربحاً وفيراً كان يدر عليهم من هذه التجارة ، فنشطوا في جلب المزيد منهم من بقاع مختلفة ، وتنوعت بذلك أصول مماليك مصر، في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي فكان منهم الأتراك ، والشراكسة ، والمغول ، والصقالبة ، واليونانيين ، والاسبان ، والألمان وغيرهم . وإنتسب هؤلاء ، إما إلى ساداتهم كمماليك الظاهرية بيبرس نسبة إلى الظاهر بيبرس (658 هـ / 1260 م) ، أو المماليك الأشرفية خليل نسبة إلى السلطان الأشرف خليل (689 هـ / 1290 م) . وأحيانا كان المملوك يُنسب إلى التاجر الذي إستقدمه كالمماليك العثمانية . وتارة تكون نسبة المملوك تبعاً لقيمته المادية أي الثمن المدفوع من قبل السيد (المشتري) إلى التاجر و من المؤكد ان الرقيق يرتفع ثمنه إذا ما إمتلك صفات أو مزايا دون غيره ، مثل قلاوون الالفي الذي يشير إسمه ان مالكه قد دفع فيه مبلغ الف دينار [50].

الـطـرق

إختلفت أساليب المؤلفين في رفدنا بمعلومات عن طرق المواصلات قديماً. فيلاحظ انه يرد ، أحياناً ، صراحة ذكر لطرق تجارية ، كما جاء في نص لإبن خرداذبه الذي ذكر عدداً من أسماء مدن كان المسافر يمر بها ، إنطلاقاً من مدينة حمص نحو مدينة دمشق ، إضافة إلى معلومات أخرى قيمة ، وهي إحتساب المسافة بين مدينة وأخرى بالأميال فقال :

في الشام طرق تجارية كثيرة منها طريق : حمص ـ دمشق ، والمسافة بين حمص وجوميه ستة عشر ميلاً ، وإلى قارا ثلاثون ميلاً ، وإلى النبك إثنا عشر ميلاً ، وإلى القطيفة عشرون ميلاً ، وأخيراً إلى دمشق أربعة وعشرون ميلاً [51].

وطريق آخر يوصل بين الرقة ودمشق وصفه جغرافي ثان هو المقدسي (ت.38هـ) فقال :

المسافة من الرقة إلى الرصافة تُقدر بـأربعة وعشرون ميلاً ، وإلى الزراعة أربعون ميلاً ، وإلى القسطل ستة وثلاثون ميلاً ، إلى بلميه ثلاثون ميلاً ، ثم إلى حمص أربعة وعشرون ميلاً ، ومنها إلى شميس ثمانية عشر ميلاً ، وإلى قارا إثنان وعشرون ميلاً ، ومنها إلى النبك إثنا عشر ميلاً ، وبين النبك والقطيفة عشرون ميلاً ، والمُتجه من القطيفة إلى دمشق عليه قطع أربعة وعشرون ميلاً .

وعلى القاصد مدينة حلب من مدينة حمص ، أن يتجه أولا إلى حماة والمسافة بينهما قدر مرحلة ، وإلى شير مرحلة ، ومثلها إلى كفر طاب ، وكذلك قدرُمرحلة إلى قنصرين ، ومن ثم إلى حلب مرحلة [52]. وقدَّرَ أحمد بن الطيب السرخسي المسافة بين بغداد ودمشق بـ (مائتان وثلاثون) فرسخاً [53].

وأحياناً يُشار إلى طرق تربط بين مدينة وأخرى ولكن دون ذكر المسافات بينها، وهي معلومات وإن تكن قيمة للدارسين إلا انها دون شك تفتقر إلى الدقة ومن ذلك :

طريق بري يربط بين مدينتي دمشق وطرابلس في بلاد الشام حيث يبدأ بدمشق ، إلى اليزبداني ، و إلى بعلبك ، إلى العنسولة ، إلى حمص . ومن العنسولة إلى قدس ، وثم إلى أقمر ، إلى العرقا ، وطرابلس [54] .

وفي بعض الأحيان يشير مؤلفون إلى مراكز بريدية كانت قائمة في أرض الشام ، يتقدمها مركز بريد مدينة دمشق الذي يربطها بمراكز أخرى كثيرة ، منها على سبيل المثال : إلى مركز بريد الجينين ، ثم بيت دارس أو تدارس وفيها خان بناه ناصر الدين خزندار تنكز ، ثم قطرى وهو مركز مستجد ، كما أشار إلى ذلك القلقشندي ، كان يشرف عليه طاجار الدوادار الناصري وفيه بئر ماء ، ثم إلى لُدَ ، ثم إلى العوجاء ، ثم الطيرة وفيها خان كذلك بناه ناصر الدين دوادار تنكز ، ثم قاقون ، ثم فحمة ، ومنها ينطلق المسافر إلى جينين [55] .

ان أراضي بلاد الشام كانت تُسهل ، كذلك ، مرور قوافل الحجاج التي تسير بطريق يُحاذي بادية الشام ، حيث يمر بشرق نهر الأردن . وهناك طريق آخر يسلكه الحاج بعد إنتهاء زيارته للديار المقدسة إذا ما أراد زيارة بيت المقدس ، والمسجد الأقصى ، وقبر إبراهيم الخليل (ع) [56] .

وإستغلت مواقع بعض المدن البحرية كمسالك لإيصال المسافرين والبضائع ، خاصة إذا ما كانت تتميز بقربها من أسواق مدينة دمشق ، ومنها تلك الواقعة على البحر المتوسط كطرابلس ، وبيروت ، وصور ، وعكا ، كما ان اسواق دمشق نفسها كانت تُرسل إليها اليضائع لتصديرها الى الموانىء الأخرى [57] .

دفعت طباع الحمام ، هذا الطائر الذي إشتُهر بعقله وفراسته وحبه لموطنه ، في ان ينظم هو الآخر إلى عمال البريد حاملاً رسائل من مكان إلى آخر . وقدر المؤلفون الذين كتبوا عن خواص الحيوان المسافات التي بمقدور هذا الطائر قطعها بألف فرسخ ، ورجوعه بزمن قصير ، ومنه مايقطع مسافة ثلاثة آلاف فرسخ في اليوم الواحد [58] .

إضافة إلى الطرق الرئيسة والمسالك الثانوية والبحرية ، كان هناك خط نقل جوي يوصل البريد عبر الجو عن طريق الحمام الزاجل . فكان ساكن دمشق يلجأ إلى إستخدام الحمام لإيصال رسالته إلى بهنسا . و يبدأ الطائر رحلته من دمشق عاصمة بلاد الشام ، متجهاً إلى بعلبك ، وإلى قاره ، وإلى حمص ، وإلى حماده ، وإلى المعرة ، وإلى خان تومان ، ثم إلى حلب ، وإلى البيره ، وإلى قلعة الروم حتى يحل في المحطة الأخيرة والتي ستكون بهنسا [59] .

كان لابد لشبكة الطرق الواسعة هذه ، على اختلاف مساراتها ، من جهة تنظمها وتراقب ادائها . فأوجد حكام الدولة الإسلامية ديواناً رسمياً يتبع الدولة ، سُمي بديوان الانشاء يضم البريد ، كان له شأن كبير نظراً لأهميته في تمشية أمور الدولة السياسية ، والإقتصادية ، والعلمية

وغيرها . فكان رأس الهرم سواء كان خليفة لعاصمة ، أو حاكماً لمدينة إشراف غير مباشر على هذا الديوان لصلة مهامه بإيصال وتسليم الرسائل للمتنفذين في حدودالدولة نفسها وخارجها.

وديوان الانشاء ، له مكانة رفيعة في بلاد الشام ، وهو يُعنى بالرسائل التي ترد الى السلطان ، واعداد الردود عليها ، مُلحق به إدارة البريد ، و إتسعت مهامه ابان العصر المملوكي فكان يُشرف على البريد البري والجوي [60] .

خُصصت للبريد ألواح فضية تُحفظ عادة في ديوان الإنشاء بأمانة كاتب السر، تُعلق على رقبة البريدي أو حامل البريد . يُكتب على إحد الوجهين " لا إلهَ إلاَّ أللهُ مُحَمَدٌ رَسُول أللهِ ، أرْسَلَهُ بالْهُدَى وَدِينِ الحَقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِينِ كُله وَلَو كَرِهَ الْمُشْرِكُون . ضُرب بالقاهرة المحروسة " .

وعلى الوجه الآخر " عزٌ لمولانا السلطان الملك الفلاني : فلان الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، فلان إبن مولانا السلطان الشهيد الفلان بن فلان ، خلد أللهُ ملكه " .

وعادة ما يتغير إسم المدينة الذي يرد على هذه الألواح فيُكتب " ضُرب في الشام " أو " ضُرب في حلب " ويعني ان الألواح خاصة بدمشق أو حلب [61].

كانت بلاد الشام مقسمة إدارياً إلى مايُعرف بـ (النيابات) ، كنيابة دمشق ، ونيابة حلب ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حماه ، ونيابة صفد ، ونيابة الكرك ، وكلها تتبع حكومة المركز في القاهرة [62]، ومع ذلك كان لكل نيابة ديوان للإنشاء خاص بها [63] .

وقد ذُكر ان أول من وضع ديوانا خاصاً للبريد هو الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (41 - 60هـ/ 661- 679 م) ، أو الخليفة عبدالملك بن مروان (65 - 86 هـ / 684 - 705 م) [64] .

إختُلِف في تحديد لفظة البريد ، رغم ماقيل انهامن أصل عربي ، فلها أكثر من معنى ، فهي تعني (الرسول) ، كما في قولهم " الحمَّى بريد الموت " أي رسوله لما " تتقدمه وتُنذِر به ". ومن ذلك قول الراجز :" رأيتُ للموتِ بريداً مدبراً " ، ويقولون لطائر الغرانق "البريد " لأنه يُنذر قدام الأسد [65] .

واشير إلى ان لفظة البريد تدل على مسافة معلومة ، قُدرت بـ (إثني عشر ميلاً) ، وقدرها آخرون بـ " أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي ، وهو أربعة وعشرون اصبعاً ، كل اصبع ست شعيرات مُعترضات ، ظهر إحداها لبطن الأخرى ، والشُعيرة سبع شعرات معترضات من ذَنَبِ بَغْلِأو برذونٍ [66].

وللبريد معنى آخر هو (الرسل على دواب البريد) ، والجمع برد وعند الزمخشري : " البرد ساكن يعني (جمع بريد) ، أي الرسول ، فخفف عن برد كرسل ورسل ، وإنما خففه هنا ليزاوج العهد . وسُمي (الرسول) بريداً لركوبه البريد أو لقطعه البريد وهي المسافة وقدرت بفرسخان ، كل فرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة الآف ذراع (أو) أربعة فراسخ وهو (اثنا عشر ميلاً) " .

وقال أيضاً : " البريد كلمة فارسية يُراد بها في الأصل البرد ، وأصلها برده دم ، أي محذوف الذنب لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة بها " [67].

صنف القلقشندي أرباب الوظائف في دمشق إلى خمسة أصناف ، كان من بينها وظائف تُعنى بشؤون البريد:

ـ المِهْمِندارِيَّة : من مهامها تلقي الرسل الواردين . كانت في عهد السلطان الناصر بن قلاوون في نيابة الأميرتنكز مهندار (واحد) مقدم ألف ، وفي عهد شعبان بن حسين (إثنين) ، ثم أمير عشرة وجندي .

ـ اميراخورية البريد : مهمتها الإشراف على شؤون خيول البريد بدمشق ونواحيها ، وكان فيها على زمن السلطان الناصر بن قلاوون أمير لعشرة .

ـ تقدمة البريد : هي المجموعة البريدية بدمشق ، كانت في عهد السلطان الناصر بن قلاوون تتألف من (واحد) من مجموعة البريدية ، ثم (إثنان) إما بإمرة عشرة أو خمسة أو إمرة خمسة وجندي .

ـ نظر مراكز البريد : والمتقلد شؤونها يكون رفيقاً لاميراخور البريد [68] .

ويبدو ان هناك باباً في مدينة دمشق غالباً ما ينطلق منها البريد ، فقد ذُكر ان السلطان الظاهر بيبرس أمر بتجديد " باب البريد وفرشه بالبلاط " [69] .

ووجد ما يُعرف بـ (مراكز البريد) ، والمقصود بذلك الأماكن التي تقفُ فيها خيل البريد بعد قطعها مسافات طويلة لغرض إستبدالها بأخرى ، وليست هناك مسافات محددة بين مركز وآخر [70] .

<u>إشــارات أخــرى</u>

ونقصد بذلك تلك الإشارات أوالمعلومات التي تسلمناها من أسلافنا ، والتي تؤكد وجود طرق آمنة ومتشعبة غطت مساحات واسعة من أراضي الدولة الإسلامية ، كانت تصل مدناً بدمشق إستخدمت من قبل أفراد أو جماعات تباينت أهدافهم في سلوكها ، وقد آثرنا إختيار معلومات مختصرة تجنباً للإطالة ــ من ذلك :

●الرحلة في طلب العلم :

لايُنكر ما لدمشق من مكانة خاصة بين العلماء وطالبي العلم ، إذ كان يتوافد على علمائها ومدارسها كثيرون .

ـ فقد حث شيخ الإقراء إبن الجزري الإمام إبن حجر قصد دمشق فهي " محج العلماء وقِبلة طلاب

العلم " ، و مركزاً للعلوم والمعارف ولذلك ترك إبن حجر القاهرة في عصر يوم الإثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة 802هـ قاصداً دمشق [71] .

ـ وكذلك ، خرج إبن حجر من القاهرة عصر يوم الإثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنين وثمنمائة قاصداً بلاد الشام للأخذ عن من بها من الشيوخ والمحدثين والمفسرين ، حيث ظل بها مائة يوم آخرها غرة محرم سنة ثلاث وثمنمائة بعدما تواترت الأخباربقرب مجيء المغول إليها فآثر العودة إلى القاهرة [72] .

● **مراسلات الحكام :**

ـ جاء ان السلطان المملوكي المنصور بن قلاوون رد على رسالة إيلخان المغول بكتاب في (رمضان681 هـ / 1282 م) وهنأه على إعتناقه الإسلام [73].

ـ ان معاهدة الصلح التي تمت في عهد ايلخان المغول ابو سعيد (716 هـ / 1316 م) وسلطان المماليك كانت ذات نتائج مهمة خاصة بعد تبادل الرسل والهدايا بين الطرفين ، وتأمين طرق القوافل والسماح بحرية الحركة لساكني بلديهما [74] .

ـ واشير إلى ان مراسلات عديدة كانت قائمة بين الملوك بعضهم مع البعض الآخر ، ورسائل أخرى كانوا يبعثوها إلى الأمراء ، وأخرى إلى بعض الشخصيات وغيرهم من رجال الدولة .

ومنها ما أشار إليها المؤرخ المعروف إبن حجر العسقلاني (ت.852هـ/1448م) في كتابه (أنباء الغمر بأبناء العمر) ، انه في عام (799 هـ / 1396 م) ، أرسل تيمورلنك رسله إلى بلاد الشام فعوقت ، ووصلت إلى القاهرة ، وكان المضمون " ... التحريض على إرسال قريبه أطلش الذي أسره قرا يوسف كما تقدم فأمر السلطان اطلش المذكور أن يكتب لقريبه كتاباً يُعرفه بما هو عليه من الخير والإحسان في الديار المصرية ، ومن ثم راسله السلطان مع أجوبة مضمونها انك إذا أطلقت من عندك من جهتي أطلقت من جهتك والسلام " [75] .

● **الحملات العسكرية :**

ـ ان السلطان محمد بن قلاوون وجه حملة عسكرية في عام (715 هـ / 1315 م) ، نحو ملطية لتخليص أهلها من ظلم حاكمها (جوبان) نائب سلطان المغول اولجايتو [76] .

ـ وكان يفد على القاهرة عاصمة المماليك العديد من معارضي حكام المغول طالبين اللجوء ، كما تخبرنا هذه الرواية :

ان جماعة من المغول المعارضين ابان حكم ايلخان المغول أبو سعيد بن اولجايتو محمد خودابنده (716 هـ / 1316 م) عبروا نهر الفرات من خلال طرق قطعت بلاد الشام ، قاصدين اللجوء الى

مصر ، منهم قفز بن زعل واسمه طاطي الذي وصل القاهرة في نفس السنة بصحبة مائة فارس مع عوائلهم [77].

ـ وذُكر انه في سنة (817هـ / 1414 م) ، " وصل كتاب أقبغا النظامي من جزيرة قبرص ، وكان قد توجه لفك أسرى المسلمين ، وقد وجد خمسمائة أسير و أزيد ... " [78] .

● **رحلات الحج :**

ـ قدم البريد من نائب حلب يُخبر بأن أبا سعيد بن اولجايتو (716 هـ / 1316 م) نادى في مملكته بالحج ، فتجهز عدد كبير من المغول قاصدين بيت الله الحرام . وابلغ نائب حلب السلطان المملوكي بأنه يخشى على الركب العراقي مهاجمته من قبل مهنا بن عيسى و ولديه فياض وسليمان اللذان كانا يقطعان طرق التجارة ، وبوساطة من سيف بن فضل عمهما تم تأمين قوافل الحجاج ، وبذلك تمكن السلطان محمد بن قلاوون من منع الأعراب من التعرض لقوافل الحج مما شجع حجاج المغول من القدوم بأعداد أكبر في العام التالي [79] .

الـخـلاصـة

لايُنكر فضل تأثير الدين الإسلامي على الحياة السياسية و الإجتماعية والإقتصادية للمجتمع بشكل عام ، فتعاليمه حثت على الصدق والأمانة والإخلاص في أي عمل يؤديه الفرد ، وخاصة اولئك الذين يتعاملون مباشرة مع أصناف مختلفة من الناس .

ومن خلال تجار كمثل هؤلاء الذين كان لهم الفضل في إزدهار الجانب الإقتصادي في دولة الإسلام وقيام نشاط تجاري غير معهود ، نشطت مدن ومرافىء تجارية قديمة ، وظهرت مراكز أخرى جديدة نظراً لما كان يتحلى به اولئك الذين عاشوا تحت ظل الخلافة الإسلامية من مبادىء وحُسن خُلق ، هي أصلاً وردت في كتابهم الكريم ، وتضمنته كتباً بحثت في تعاليم هذا الدين ، وحثت المؤمنين على إتباعها .

لقد أوكل الإهتمام بالطرق وتفويض أمر حمايتها ، والإشراف على سير القوافل ، إلى مؤسسات حكومية حظيت بإهتمام ورعاية أقطاب الدولة أنفسهم ، نظراً للرابط الكبير الذي يجمع بين السلطة والقائمين على إدارة البريد .

من البديهي ان شبكة الطرق البرية والبحرية ، لم تكن مخصصة لقوافل التجارة فحسب ، رغم أهمية الجانب التجاري لعلاقته المباشرة بإحتياجات الناس اليومية ، بل كان يرتادها أفراداً إختلفت أهدافم ، كما نوهنا إلى ذلك ، إذن كان من الواجب على دولة المماليك تأمين جميع الطرق المارة بأراضيهم حفاظاً منهم على أرواح الناس من جهة ، ومن جهة أخرى ان في ذلك عكس لهيبة الدولة وقوتها .كما لا ينبغي التغاضي عن مهام رُسل البريد الخطيرة الذين كانوا يحملون في جعبهم اسراراً تتعلق بمصائر أرواح ودول .

إن تأمين طرق المواصلات بين المدن والمرافىء وتوافد أعداد كبيرة من الناس ، على إختلاف مقاصدهم ، شجع كذلك على نشوء مظاهر ، وإن كانت معروفة ، إلا انها تطورت على نحو كبير . ونقصد بذلك فن العمارة الذي تجلى في الخانات لإيواء المسافرين ، وإضافة أقسام جديدة للمدارس لسكن الطلبة القادمين من أطراف بعيدة ، و إضفاء المزيد من الجمالية والتنظيم على عمارة الأسواق التي إتخذت أشكالاً مختلفة لإستقطاب التجار والمتبضعين .

لاحظنا من خلال مناقشتنا لموضوع ، طرق المواصلات في مدينة دمشق ، انه يرتبط إرتباطاً كبيراً بمواضيع متشعبة توجب علينا البحث فيها ، بإختصار ،مثل : التعريف بعراقة ومكانة عاصمة بلاد الشام ، ابوابها ، أسواقها ، انجازات سلاطين المماليك ، و تأمين طرقها الرئيسة والفرعية بإشراف مؤسسات أنشأتها الدولة .

الهوامش

القرآن الكريم :

- **المؤمنون : 50**
- **قريش : 1 - 2**
- **الأعراف : 137**

(1) الحموي ، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت.626هـ/1229م) ، معجم البلدان ، دار صادر ، (بيروت، 1397هـ/1977م) ، م2، ص463.

(2) الظاهري، غرس الدين بن خليل إبن شاهين (ت.873هـ) ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بولس راواسيس ، المطبعة الجمهورية ، (باريس،1892) ، ص41

(3) إبن عساكر، الإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبةالله بن عبدالله الشافعي(ت.499هـ) ، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل وإجتياز بنواحيها من وارديها وأهلها ، دار البشير للنشر ، م1،ص8

(4) إبن شداد ، عزالدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم (ت.684هـ) ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، حققه سامي الدهان ، (ب.م.، 1375هـ/1956م) ، ص14

(5) المصدر نفسه ، ص15

(6) المصدر نفسه ، ص17

(7) إبن جبير ، محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكناني البلنسي (ت.614هـ/1217م) ، رحلة إبن جبير، دار صادر ، (بيروت ، ب.ت.) ، ص234-235

(8)الحموي ، المصدر السابق ، م2، ص463.

(9) المصدر نفسه ، م2، ص464 .

(10)إبن شداد ،المصدر السابق ، ص13-14

(11)إبن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي البغدادي الموصلي (ت.367هـ/977م) ، صورة الأرض ، تحقيق دي غوييه ، مطبعة بريل ، (ليدن،1938) ، القسم الأول ، ص174

(12)الحصني ، محمد أديب آل تقي الدين ، منتخبات التواريخ لدمشق ، قدم له كمال سليمان صليبي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، (بيروت،ب.ت.) ، ج1 ، ص1

(13)الحموي ، المصدر السابق ، م2، ص470.

(14)القرطبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري (ت.671هـ) ، الجامع لأحكام القرآن ، دار التراث العربي ، (بيروت،1965-1966) ، ج12 ، ص126-127

(15)إبن كثير ،أبو الفدا اسماعيل إبن كثير القرشي الدمشقي (ت.774هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، دار الجيل ، (بيروت،1408هـ/1988م) ، ط1 ،ج3، ص238-239

(16)إبن حوقل ، المصدر السابق ، القسم الأول ، ص174

(17) الحموي ، المصدر السابق ، م5 ، ص330

(18)إبن كثير ، المصدر السابق ،ج4 ، ص 557

(19)القرطبي ، المصدر السابق ،ج20 ، ص203-209

(20)الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، دار إحياء التراث العربي (بيروت،1379هـ) ، ج4 ، ص470

(21)الحصني ، المرجع السابق ، ج3 ، ص352

(22)البدري ، ابي البقاء عبدالله محمد بن أحمد تقي الدين البدري المصري الدمشقي الشافعي ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، دار الرائد العربي ، (بيروت،1980) ، ط1 ص221

(23)الظاهري، المصدر السابق ، ص45

(24)إبن حوقل ، المصدر السابق ، القسم الأول ، ص174

(25)البدري ، المصدر السابق ، ص221

(26)المصدر نفسه ، ص222

(27)المصدر نفسه ،224

(28)عاشور، سعيد عبدالفتاح ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت،1972) ، ص306

(29)الحموي ، المصدر السابق، م2، ص463.

(30)المصدر نفسه ، م2، ص464.

(31)إبن شداد ، المصدر السابق ، ص35-36

(32)اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، (ت.284هـ) ، كتاب البلدان ، (ليدن،1891) ، ص325

(33)إبن شداد ، المصدر السابق ، ص35-36

(34)اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص325

(35)عاشور ،المصدر السابق ، ص306

(36)إبن جبير ، المصدر السابق ، ص261-262

(37)بيطار ، أمينة ، تاريخ العصر العباسي ، جامعة دمشق ، (دمشق،1416-1417هـ/1996-1997م) ، ص194

(38)علي ، أحمد إسماعيل ، تاريخ بلاد الشام ، دار دمشق ، مطبعة جوهرة الشام ، (دمشق،1994)، ط3 ، ص326

(39)العريس، محمد ، موسوعة التاريخ الإسلامي ـ العصر المملوكي ، دار اليوسف ، (بيروت،ت.)
ص118-119

(40) المصدر نفسه ، ص120

(41)مصطفى ، شاكر ، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني ، ، دار السلاسل للطباعة والنشر ،
(ب.م.،1408هـ/1988م) ، ط1 ، ج2 ص428-430

(42)العريس ، المرجع السابق ، ص 123

(43)الحصني ، المرجع السابق ، ج3 ، ص1123

(44)العريس ، المرجع السابق ، ص124

(45)المصدر نفسه ، ص120

(46)طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام (648-923هـ/1250-1517م) ، دار النفائس
(القاهرة،1418هـ/1997م) ، ص564

(47) العرسي ، المرجع السابق ، ص121 - 122

(48)المرجع نفسه

(49)عاشور، المرجع السابق ،ص314

(50) المرجع نفسه ، ص154

(51)إبن خرداذ به ، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله(ت.300هـ) ، المسالك والممالك ، مطبعة بريل ،(ليدن،1889)
ص98

(52)المقدسي ، شمس الدين محمد بن أحمد البشاري (ت.38هـ) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل
(ليدن،1906) ، ط2 ، ج1 ، ص161

(53)الحموي ، المصدر السابق ، ص464.

(54)الظاهري، المصدر السابق ، ص120

(55)القلقشندي ، أبي العباس أحمد بن علي (ت.756هـ/1355م) ،صبح الأعشى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (القاهرة،1922) ، ج14، ص379

(56)بيطار، المرجع السابق ، ص369

(57) المرجع نفسه ، ص370

(58)الدميري ، كمال الدين ، حياة الحيوان الكبرى ، دار الطباعة المصرية ، (بولاق،1275هـ/1841م) ، ج1 ، ص235

(59)العمري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت.749هـ) ، التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، (بيروت،1988) ، ص197

(60)القلقشندي ، المصدر السابق ، ج14 ، ص371

(61)المصدر نفسه ، ص371

(62) عاشور ، المرجع السابق ، ص304

(63) المرجع نفسه ، ص310

(64)القلقشندي ، المصدر السابق ، ج14 ، ص368

(65)ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ، (بيروت،ب.ت.) ، م3 ، ص86-87 ، (حرف الدال ـ مادة بَرَدَ) .

(66)القلقشندي ، المصدر السابق ،ج14 ، ص366

(67)الزبيدي ، محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت،ب.ت.) ، م2 ، ص298 ، (فصل الباء من باب الدال) .

(68)القلقشندي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص191

(69)عاشور ،المرجع السابق ، ص 304

(70)القلقشندي ، المصدر السابق ، ج14 ، ص372

(71)عزالدين ، محمد كمال الدين ، التاريخ والمنهج التاريخي لإبن حجر العسقلاني ،(ب.م.، ب.ت.) ، ص 96

(72) المرجع نفسه، ص129

(73)القلقشندي ، المصدر السابق، ج7 ، ص237

(74)محمد ، صبحي عبدالمنعم ، سياسة المغول الإيلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام (716 - 736 هـ / 1316 - 1335 م) ، العربي للنشر والتوزيع ، (القاهرة،2000) ، ط1 ، ص102

(75)إبن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت.852هـ/1448م) ، أنباء الغمر بأبناء العمر دار الكتب العلمية ، (بيروت،1406هـ/1986م) ، ط2 ،ج3، ص314

(76) إبن كثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص456

(77)النويري ، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت.733هـ) ، نهاية الارب في فنون الأدب ، مطبعة دار الكتاب المصرية ، (القاهرة،1998) ، ج32 ، 254

(78)إبن حجر العسقلاني ، المصدر السابق ،ج7 ، ص165

(79)المقريزي ، تقي الدين ابو العباس أحمد بن علي (ت.845هـ) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ـ نسخة مصورة ، (القاهرة،1936) ، ج2 ، ق1 ، ص212

المصادر

القرآن الكريم :

- المؤمنون : 50
- قريش : 1 - 2
- الأعراف : 137

(1) إبن جبير ، محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكناني البلنسي (ت.614هـ/1217م) ، رحلة إبن جبير، دار صادر ، (بيروت ، ب.ت.)

(2) إبن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت.852هـ/1448م) ، أنباء الغمر بأبناء العمر دار الكتب العلمية ، (بيروت،1406هـ/1986م) ، ط2 ،ج3

(3) إبن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي البغدادي الموصلي (ت.367هـ/977م) ، صورة الأرض ، تحقيق دي غوييه ، مطبعة بريل ، (ليدن،1938) ، القسم الأول

(4) إبن خرداذ به ، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله(ت.300هـ) ، المسالك والممالك ، مطبعة بريل ،(ليدن،1889)

(5)) إبن شداد ، عزالدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم (ت.684هـ) ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، حققه سامي الدهان ، (ب.م.، 1375هـ/1956م)

(6) إبن عساكر، الإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبةالله بن عبدالله الشافعي(ت.499هـ) ، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل وإجتياز بنواحيها من وارديها وأهلها ، دار البشير للنشر،م1

(7) إبن كثير ،أبو الفدا اسماعيل إبن كثير القرشي الدمشقي (ت.774هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، دار الجيل ، (بيروت،1408هـ/1988م) ، ط1 ،ج3

(8) ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ، (بيروت،ب.ت.) ، م3 ، (حرف الدال ـ مادة بَردَ) .

(9) البدري ، ابي البقاء عبدالله محمد بن أحمد تقي الدين البدري المصري الدمشقي الشافعي ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، دار الرائد العربي ، (بيروت،1980) ، ط1

(10) الحموي ، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت.626هـ/1229م) ، معجم البلدان ، دار صادر ، (بيروت، 1397هـ/1977م) ، م2

(11) الدميري ، كمال الدين ، حياة الحيوان الكبرى ، دار الطباعة المصرية ، (بولاق،1275هـ/1841م) ، ج1

(12) الزبيدي ، محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت،ب.ت.) ، م2 ، (فصل الباء من باب الدال)

(13) الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، دار إحياء التراث العربي (بيروت،1379هـ) ، ج4

(14) الظاهري، غرس الدين بن خليل إبن شاهين (ت.873هـ) ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بولس راواسيس ، المطبعة الجمهورية ، (باريس،1892)

(15) لعمري ، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى (ت.749هـ) ، التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، (بيروت،1988)

(16) القرطبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري (ت.671هـ) ، الجامع لأحكام القرآن ، دار التراث العربي ، (بيروت،1965-1966) ، ج12

(17) القلقشندي ، أبي العباس أحمد بن علي (ت.756هـ/1355م) ،صبح الأعشى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (القاهرة،1922) ، ج14

(18) المقدسي ، شمس الدين محمد بن أحمد البشاري (ت.38هـ) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، (ليدن،1906) ، ط2 ، ج1

(19) المقريزي ، تقي الدين ابو العباس أحمد بن علي (ت.845هـ) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ـ نسخة مصورة ، (القاهرة،1936) ، ج2 ، ق1

(20) النويري ، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت.733هـ) ، نهاية الارب في فنون الأدب ، مطبعة دار الكتاب المصرية ، (القاهرة،1998) ، ج32

(21) اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، (ت.284هـ) ، كتاب البلدان ، (ليدن،1891)

المراجع

(1) بيطار ،أمينة ، تاريخ العصر العباسي ، جامعة دمشق ، (دمشق،1416-1417هـ/1996-1997م)،ط4

(2) الحصني ، محمد أديب آل تقي الدين ، منتخبات التواريخ لدمشق ، قدم له كمال سليمان صليبي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، (بيروت،ب.ت.) ، ج1

(3) طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام (648-923هـ/1250-1517م) ، دار النفائس (القاهرة،1418هـ/1997م)

(4) عاشور، سعيد عبدالفتاح ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر (بيروت،1972)

(5) العريس، محمد ، موسوعة التاريخ الإسلامي ـ العصر المملوكي ، دار اليوسف ، (بيروت،ت.)

(6) عزالدين ، محمد كمال الدين ، التاريخ والمنهج التاريخي لإبن حجر العسقلاني ،(ب.م.، ب.ت.)

(7) علي ، أحمد يل ، تاريخ بلاد الشام ، دار دمشق ، مطبعة جوهرة الشام ، (دمشق،1994) ، ط3

(8) محمد ، صبحي عبدالمنعم ، سياسة المغول الإيلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام (716 - 736 هـ / 1316 - 1335 م) ، العربي للنشر والتوزيع ، (القاهرة،2000) ، ط1

(9) مصطفى ، شاكر ، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني ، ، دار السلاسل للطباعة والنشر ، (ب.م.،1408هـ/1988م) ، ط1 ، ج2